الأديب

مجلة أسبوعية جامعة للآداب والفنون تصدر في أول كل شهر

لم يكن يذكر من حياته معها وهي تودعه في مطار باريس الا ما كان يداعبها به عندما تتيه عيناه في مياه عينيها الزرق :

ـ آمل ان تكون لي بنت لها مثل عينيك..

وكان يذكر الى ذلك جوابها المسكت :

ـ لن تكون لك بنت في مثل جمال عيني الا اذا كانت لك زوجة في مثل جمالي ...

ولم يكن هذا الاغراء الذي طالما التجأت اليه لوسيان ليقنع محمودا بأن يتزوج من فتاة فرنسية ، ولو انه منحها قلبه واستأثرت بحبه طيلة مدة دراسته في باريس ، فقد كان يعتبر حبهما تجربة شباب لا يمكن ان ينجح اذا خرج من طور التجربة الى طور الحياة الدائمة المستمرة . وهو بعد لم يكن يؤمن بزواج الاجنبية لان فكرته عن الزواج كانت تختلف عن الفكرة التي قدمتها اليه لوسيان رغم انه كان يهيم بحبها ويعجب بجمالها .

وعاد محمود الى المغرب يحمل معه ذكرى عزيزة من عيني لوسيان ،ضاعت لوسيان من ذاكرته في خضم الحياة ، ولكن عينيها كانتا تطلان عليه دائما خلف سحب الحياة فكان يرى فيهما قوته على الاستمرار ، وأصبحت مداعبته للوسيان رغبة جارفة في نفسه :

ـ آمل ان تكون لي بنت لها مثل جمال عينيك .

وفكر في ان يتزوج . استعرض امامه الفتيات اللائي يعرفهن واللائي وقعن في طريقه ، وهام باحداهن ثم بأخرى ، ولكنه كان دائما يذكر جواب لوسيان :

ـ لن تكون لك بنت في مثل جمال عيني الا اذا كانت لك زوجة في مثل جمالي ...

وأوقفته الصدفة أخيرا على أبواب الجامعة، فكانت خمرية اللون فاتنة الملامح رشيقة القد، ولكن شيئا من ذلك لم يلفت نظره وانما اهتدى اليها من خلال عينين زرقاوين تسيلان عذوبة وجاذبية ، ولم تذب زرقة العينين في اللون الخمري ، وانما كانتا جوهرتين تلمعان في أفق اسمر كما تحتد زرقة السماء في الضوء الباهت .

وكانت « زهراء » خطيبته الحبيبة ، وجد فيها مثل ثقافة لوسيان ولكنه لم يجد حيوية لوسيان وحركتها الفكرية ، ووجد فيها مثل قابلية لوسيان للحياة ، ولكنه وجد حياة الفتاة المغربية ، وعفة عينيها وطهارة قلبها ، ووجد فيها روعة جمال لوسيان ، ولكن بنكهته الشرقية المغربية التي تجمع سمرة الشمس اليقظة الى زرقة السماء اللامعة .

وذكر قول لوسيان مرة ومرات وهو يتحدث الى زهراء ويسبح في مياه عينيها الحالمة :

ـ لن تكون لك بنت في جمال عيني الا اذا كانت لك زوجة في مثل جمالي ...

ويكاد يلتهم زهراء بعينيه الفاحصتين وكأنه يجيب :

ـ أرأيت ..؟ : لي خطيبة اخذت منك اجمل ما فيك : عينيك ولكنها تفوقك صبى وجمالا وستكون لي بنت في مثل جمال عينيك؟

ويحس بلهب الشوق الى البنت التي تشبه لوسيان في جمال عينيها ، ولكن زهراء كانت مستعصمة :

ـ الى ان تكون لي زوجا عند الله والناس، واسرع بالزفاف ، فقد كانت زهراء لا تريد ان تمنحه نفسها بعد ان منحته قلبها الا بعد ان تحتفل العائلتان بهما عروسين شرعيين .

وانتصر الحب ..

بقلم عبد الكريم غلاب

وجد في زهراء كل ما كان يريد ، ولم يجد فيها ما لم يكن يحبه في لوسيان .. كانت تشعر بأنه الرجل الذي داعب احلامها منذ ادركت ان من الرجال من يداعب احلام الفتيات ، وكانت تحس بأنه الانسان الذي يستطيع ان يحملها الى عالم الواقع بعد ان وجدت في الشعر والقصص والكتب كثيرا من عالم النظريات وعالم الخيال ، وكانت تقدر فيه انه الرجل الذي استطاع ان يملأ في نفسها مكان ابيها وامها وهي التي عاشت بين أحضان الامومة والأبوة لا تعرف سلطانا على نفسها غير سلطانهما،ولا تكن ودا وتقديرا وحبا لغيرهما ، ومنحته كل ما تملك من حب وتقدير وود ومنحها ، ولكنه كان دائما يتطلع الى صفاء عينيها فيهتف به الهاتف :

ـ اريد منك بنتا في مثل جمال عينيك...

وكانت زهراء تحس بوخز ضمير وهي تشعر بانها استطاعت ان تمنحه كل شيء ، ولكن البنت التي لها مثل جمال عينيها ...؟

وأحس برغبته تصبح مطلبا ملحاحا لا ينساه الا ذكرته به العينان السابحتان في الملكوت الازرق ... وفكر :

أعطيتها كل شيء ، ولكني ما أزال مبخوس الحظ ... وما اريد منها غير تحقيق الحلم الذي ساورني قبل ان اعرف عينيها .

وكتم مشاعره فلم يرد ان يشعر زهراء بأنه غير راض عن حياته ، ولكنه لم يكن ليخفي امله كلما تطلع الى العينين الصافيتين، وكانت تبتسم وهي تجيب :

ـ اني أدخرها لتكون ابهى جمالا واحلى منظرا .

ولم ينطفىء الامل ، فهو يعرف ان عمته لم تنجب الا بعد سنوات وكان يستمع اليها وهي تحكي قصة انتصارها بعد ان قرر زوجها ان يتخلص منها او يتزوج عليها .. قاومت.. ووعدت .. وامدتها العناية الالهية بالعون فافترت حياة الزوجين التعسين عن بنين وبنات ، ولم تطلق العمة ولم يتزوج عليها زوجها .

ولكن محمود لم يكن ليستنيم للاقدار ، فهو يؤمن بالعلم ، وهو يعرف ان زهراء لم تكن اقل منه ايمانا بالعلم ، ولم يجد غضاضة في ان يفضي اليها بوساوسه ، ولم تجد غضاضة في ان تفضي اليه . وهي لا تتهم نفسها ، فهي من عائلة لم تعرف العقم ، ولكنها لا تتهمه ، فهو مثال الرجولة عندها ، وشبابه وحيويته وايمانه بنفسه وبالمستقبل لا يترك كل ذلك في نفسها مجالا للشك في رجولته .

وأفضيا للطبيب ، والتمسا عنده العلاج ، ولم يكن ليوحي اليهما باليأس ، فهو حريص على ان يكون طبيبا مداويا ، يعيش بالطب ، ومع التطبيب الامل في الشفاء ، وهو حريص على الا يهدم سعادة عائلة يمكن ان تسعد بالحب ان لم تسعدها انانية الاستمرار وطبيعة الارث .

وعاش معهما الامل شهورا فعاما ، وعاشت الى جوار الامل مخاوف تطير النوم من عيني محمود ، وتصب الرعب في قلب زهراء ، ولكنه ـ وهو ينظر الى عينيها بأمل ـ لم يكن يفكر الا في الحب الذي استطاعت زهراء ان تنعش به حياته . وظل يحبها وظلت تحبه ، ولكنه لم يكن يصم آذانه عن الكلمات المعسولة تعبر بها امه عن الامل الطافح في قلبها والتي تجتاز كل الحواجز لتستقر في أذنيه :

ـ اريد ان ارى خلفي في ابنك قبل ان اموت ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ مسكينة زهراء ... في حاجة الى دواء.

« اموت » .. «مسكينة» .. كلمتان كانتا تقتلعان الامل من قلبه الطافح بالامل ، وكانتا تدنيان منه المستقبل بظلامه .. بانقطاع الرجاء في استمرار الحياة من بعده .

وكان يفض طرف اذنيه خلف ابتسامة يريد ان يجعلها مشرقة :

ـ في حياتك يا امي .. وبدعائك الصالح.

ولكن الكلمات لم تعد معسولة ، ولم تعد تنطق بها الشفتان الحبيبتان فحسب ، ولكنها اصبحت على كل لسان :

ـ وانت يا محمود ..متى..؟

وتكشفت الكلمات عن الهدف :

ـ النساء غيرها كثير ..

ولم يعد محمود يعيش في ازمته منطويا على نفسه او مفضيا بوساوسه الى زهراء ، وانما اصبح يعيش في ازمته مع الناس . هم ان يطرد الازمة عنه ففكر :

ما لهؤلاء يقتحمون على الناس مشاكلهم الخاصة .. ؟ الخاصة ..؟ ولكنه استمرار العائلة وارث الاسم والجهد والعمل .. انه المستقبل .. لا يعيش في شخصي ، ولكنه يعيش في ابنائي من بعدي .. المستقبل ..؟ انا الذي اصنع المستقبل فلم اعش في اسرة؟ يكفي ان آبائي واجدادي عاشوا في أسر هذا المستقبل : الخرافة .. الخرافة ..؟ أكنت انا نتاج خرافة عاشت في ضمير ابائي واجدادي .. ؟ ولكني مع ذلك احب ان أتمرد .. لم لا اتمرد على الخرافة حتى التي كنت نتاجها ؟ التاريخ سيذكرني وان لم يذكر واحدا من آبائي واجدادي .. اولئك ساروا سلفيين يحققون ما حققه الانسان منذ آدم ، فلم لا أكون ثوريا احقق ما لم يحققه احد من اسلافي ؟ أنا وزهراء نعيش حاضرنا ومستقبلنا .. وننهي معا خرافة الاستمرار التي عاش لها البشر كهدف تافه .. هدف يغلف شبقهم وشهوتهم الازلية .. انا وزهراء سنكون ذينيك اللذين صنعا جديدا في التاريخ : انهيا الاستمرار الابدي .

وانتشلته من تفكيره كلمة عاشت في ضميره قبل ان يعرف زهراء :

ـ أريد ان تكون لي بنت في مثل جمال عينيك ..

عادت به الكلمات من المستقبل الى الحاضر، فلم يكن يريدها للمستقبل بقدر ما كان يريدها للحاضر : بنت جميلة ذات عينين زرقاوين عاشت في ضميره سنوات قبل ان يعرف زهراء ، ولم تستطع زهراء ان تكون البنت الذي أراد ، رغم انه عب من مياه عينيها الزرقاوين حتى ارتوى ..

وظهرت اعراض الشقاء في افق محمود ، فقد لفته الدوامة والامواج تثقله الى الخضم الصاخب فيبتعد بقلبه واحساساته وعواطفه عن زهراء ويكاد يشير اليها من بعيد : الوداع ..

وتعود به الامواج الى الشاطىء الامين فيستدفىء بالحب ، وتحن عليه العينان الزرقاوان المخضلتانبدموع الالم وهما تناديان:

ـ عد .. عد الي كما كنت زوجا حبيبا .. فقد وجدت فيك الحاضر وانت مستقبلي .. قبلت التضحية من اجل حبك ، فهلا تخليت عن انانية ، خرافة ، خلقها الاولون ، وعاشوا في ظلالها .. انا تخليت عنها من اجلك .. كنت اريده طفلا يضمن مستقبلي وأعيش فيه جيلا آخر ، او بنتا تحفو علي في شيخوختي .. ولكني قانعة بك ، فلم تتخل عني في شبابي ولم اتخل عنك ؟

ولفت محمودا الدوامة في عنف ، وتردد في سمعه :

ـ أريد ان ارى خلفي في ابنك قبل ان أموت ..

ـ النساء غيرها كثير .

ولكن القوة التي كانت تبعده عن زهراء هي نفس القوة التي كانت تشده اليها .

وعرفت زهراء الشقاء في البعد ، فقد كان يسافر ليبتعد عن مسرح المأساة ، حتى اذا غلبه الشوق عاد اليها .. وعرفت الشقاء في الثورة الغاضبة .. ولم تألف منه ثورة ولا غضبا حتى اذا ادركه الندم عاد كالحمل يهيم في العينين الزرقاوين وكأنه يراهما لاول مرة .. وعرفت الشقاء في كلام الناس فانتبذت بنفسها مكانا قصيا لتسلم من محاصرة كلام الناس وكأنها اتت امرا ادا يعز على الغفران.. ولكنها كانت على استعداد ان تتحمل كل ذلك في سبيل محمود .

وعادت الدوامة بمحمود الى البيت ثائرا غاضبا كما لم يثر من قبل ، كانت تنظر اليه فيزور عن عينيها المستعطفتين .. وكانت تتحدث اليه فيدوي صوتها الحنون كالرعد في اذنيه .. وكانت تقترب منه فيبتعد ، وكانت تلمسه فكانما تلسعه بنار تثير الخوف في كيانه .. كانت تود ان تملأ وجوده فكان يود ان تتركه للفراغ ، فقد أصبح يشقى بوجودها .

ولم تحتمل زهراء ، فقد ضغط محمود بشدة على اعصابها فانفجرت في وجهه باكية، ولم يكن بكاؤها نواحا ولا عويلا ، وانما كان انفجارا انبعث من العينين الجميلتين فاختفت زرقتهما الصافية وراء حمرة دامية ، وانبعث من الصوت المتهدج وقد اختفى حنانه وحنوه، ولم تشرق بدمع ولم يكتم صوتها الوجه العابس الثائر ، وانما انطلق منفجرا :

ـ محمود .. ما ذنبي يا محمود.. تزوجتك وكلي امل في طفل او طفلة تشعرني بأنوثتي.. بكياني .. بوجودي ، تحفظ علي مستقبلي.. تمنحني اعتباري امام الناس .. ولكنك خيبت أملي .. رميتني في ظلال الوحدة واقفلت طريق المستقبل في وجهي .. وفتحت علي بابا رياحه عاتية ، لم يكن احد ـ من الذين يتحدثون عني ـ يستطيع ان يفتحه في وجهي .. ولكني تقبلت منك كل ذلك لاني احبك .. ولاني اضع فيك كل آمالي .. وانت ابي وانت ابني .. انت حاضري وانت مستقبلي.. انت وجودي ودنياي .. لا انافقك ، ولكني أعيد على مسمعك ما يؤمن به قلبك .. لو استمعت لقلبك لاهتديت ..

وهم محمود ان يتكلم ولكن الصوت المتهدج ارتفع قويا حتى ملأ كل آفاق محمود فخفض رأسه ، واستمر الصوت الجريح يهدر :

ما حدود مسؤوليتي وما حدود مسؤوليتك.. كلانا مجرم في حق البنت ذات العينين الزرقاوين التي تريدها .. انت وانا شريكان، وقد نفترق فتشقى واشقى ، ويكون ما بنيناه من عش جميلوما شدنا من حب هو الضحية.. اخلصت للعش واخلصت للحب ، لكن معاولك تكاد تعصف باخلاصي .. انا لا اكافح في سبيل شخصي ولا في سبيل الابن الذي اريد ، وانما اكافح في سبيل الحب الذي يجمع بيننا ، اكافح في سبيلك انت كما اكافح في سبيلي انا ، وسينهار كل ما أكافح في سبيله اذا لم نكن سعيدا بهذا الذي بيننا .. لا مستقبل لنا فلم نحطم حاضرنا ..

وخنقت الدموع الصوت المتهدج فاكبت زهراء على كفيها تدفن وجهها بين راحتيها ، وتهدل شعرها السبط فأسدل ستارا كثيفا على الوجه اللاهب الحزين ، ولم يعد هناك غير أنين صامت تردد صداه الغرفة التي نشر الحزن ظلاله بين جدرانها .

ورفع محمود عينيه وكأنما أزيح عنهما ستار كثيف كان يظللهما بالسواد وتطلع الى زهراء فلم ير منها غير تمثال بائس صنعته يد فنان متشائم ، ولم يطل به التفكير فقد كانت دموع زهراء كافية لاقناع فكره قبل عاطفته ، وطوق محمود زهراء بيدين حانيتين وهو يهمس :

ـ سامحيني يا زهرائي فقد دفنا مستقبلنا في حنايا حبنا .

الرباط ـ المغرب عبد الكريم غلاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com